النقد الأدبي االقديم بين خصوصية البيئة العربية والانفتاح على الثقافة الأجنبية

Ancient literarycriticismbetweenspecificity of the Arabenvironment and openness to foreign culture

سمية الهادي[1,*]

[1]المركز الجامعي ميلة، (الجزائر)، s.lhadi@centre-univ-mila.dz

تاريخ الإيداع: 2022/12/08 تاريخ المراجعة:2023/02/07 تاريخ النشر: 2023/03/31

ملخص:

يلامس مقالنا الموسوم بـ: "النقد الأدبي القديم بين خصوصية البيئة العربية والانفتاح على الثقافة الأجنبية" مرحلة مميّزة من مراحل النقد العربي، في العصر العباسي. حيث تسعى الدراسة للوقوف عند أهم المؤثرات الأجنبية التي ساعدت في تأسيس النقد على قاعدةمنهجية علمية، بالاعتماد على بعض النماذج والمؤلفات النقدية التي توضح استفادة النقد العربي من القواعد، والأصول التي انتقلت إلى العرب من مؤلفات اليونان على وجه الخصوص.

الكلمات المفتاحية: النقد الأدبي، الثقافة الأجنبية، المؤثرات، البيئة العربية.

Abstract:

Our article, entitled: "Ancient literarycriticismbetweenspecificity of the Arabenvironment and openness to foreign culture", touches on a particular stage of Arabcriticism, during the Abbasidperiod. The studyseeks to identify the most important foreign influences that have helped to establishcriticismbased on scientificmethodology. Based on somemodels and criticalworksthatexplain the use of Arabiccriticism of standards, and the documents that have been transferred to Arabsfrom the works of Greece in particular.

Keywords: *literarycriticism, foreign culture, influences, Arabenvironment*

مقدمة:

شهدت البيئة العربية في العصر العباسي ازدهارا شمل مختلف جوانب الحياة الفكرية، والأدبية، والاجتماعية، والسياسية، نتيجة لاجتماع عدة عوامل ساهمت في بثّ مناخ مستقرّ دفع بالعلماء المسلمين نحو تحقيق التفكير المنهجي، والمنطقي، والعلمي بما يخدم الدولة العباسية.

*المؤلف المراسل.

ولأن النقد موضوعه الأدب فقد كان تأثره بالمناخ الفكري نتيجة حتمية للمستجدات التي طرأت على النتاج الأدبي، والتي تناسب في مجملها التغيرات التي طرأت على الحياة يومها. فقد شهدت ساحة الأدب والنقد العربي انفتاحا على النتاج الأجنبي. وهو ما سمح للنقاد العرب بالاطلاع على منهج عقلي، ومنطقي يتّبع القواعد والأصول العلمية في معالجته للنصوص الأدبية.

في ضوء ما تقدّم سوف نحاول الوقوف عند المشهد النقدي في العصر العباسي، وملامسة أهم المؤثرات الأجنبية في النقد الأدبي القديم، وكذا بعض النماذج النقدية التي يبرز فيها الأثر الأجنبي. من خلال محورين أساسيّن هما: الحياة الأدبية في العصر العباسي، وأثر الثقافة الأجنبية في النقد الأدبي.

أولا: الحياة الأدبية في العصر العباسي:

1-البيئة الأدبية والفكرية:

عرف العرب في العصر الجاهلي، وكذا في بداية العصر الإسلامي، حياة مبنية على الفطرة والبساطة في كل نواحيها. ولكن بدأ شكل هذه الحياة يتغيّر مع تشكل ملامح الدولة الإسلامية المترامية الأطراف. وبلغ التطور والازدهار ذروته في العصر العباسي.

كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن المحيط الهندي والسودان جنوبًا إلى بلاد الترك والروم شمالا. وكانت تضم أوطانا كثيرة، وتعيش فيها شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة، غير أنّها لم تكد تدخل في نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربي امتزاجًا قويا، ومضت هذه الأجناس تنصهر في الوعاء العربي.[1]

لقد تعلقت قلوب الشعوب المسلمة من غير العرب بالقرآن الكريم، فحرصوا على اتقان العربية لتذوّق معانيه، وملامسة حلاوته. فسارعت شعوب إيران، والعراق، ومصر وبلاد المغرب إلى تعلّم لغة القرآن الكريم والحديث النبوي. وبعد فتح هذه البيئات بنحو قرن نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم في جميع أنحائها.

ولأن الحياة البشرية وعلاقة الأمم، والحضارات فيما بينها مبنية على التأثر والتأثير فإن انفتاح الدولة الإسلامية على غيرها من الأمم المجاورة لها، والمنطوية تحت لواء الإسلام كان له أثره في مختلف أشكال الحياة الفكرية والثقافية، والاجتماعية.

وتحولت الثقافات العامة التي كانت مبثوثة في البلدان المفتوحة إلى العربية وأهم هذه الثقافات حينئذ الثقافة الهندية والفارسية واليونانية.

وكانت الثقافة الهندية تصل عن طريق الفرس وما سقط إليهم منها وعن طريق من دخلوا منهم حديثا في الإسلام واندمجوا في عرب العراق.[2]

وبالعودة إلى مظاهر الحياة العباسية يبدو جليّا الأثر الفارسي عليها فقد كانت الثقافة الفارسية أبعد تأثيرا في المحيط العباسي. ومردّ ذلك دخول جمهور الفرس في الإسلام واقتباس العرب كثيرا من صور حياتهم في المطعم والملبس، وبناء القصور ونظام الخدم. وأخذوا يحكون عن أقاصيصهم وأخبار ملوكهم وحكمائهم.

وإذا كان الأثر الفارسي قد بدا واضحا في الحياة الاجتماعية، فقد كانت الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثّرت في الفكر العباسي، عن طريق النقل والترجمة وليس عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب. حيث لم يختلط

العرب باليونان والبيزنطيين إلاّ اختلاطًا محدودا عن طريق العبيد والرقيق البيزنطي الذي كان يقع في الأسر أو يباع في سوق النخاسة.[3]

ازدهرت الحياة العقلية في العصر العباسي الأول (132هـ -232هـ) ازدهارا كبيرا وتلاقت في الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العريقة في أثرها في العلم والثقافة. كانت الدولة مزيجا من شعوب كثيرة وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر هذه الثقافات.

ولعل ما يميّز الأثر الفارسي عن باقي الثقافات الوافدة هو التغلغل في جميع ميادين الحياة، فإذا كان الأثر اليوناني قد برز بشكل كبير في الجانب الفكري من خلال تأثر الفلاسفة العرب بالفلسفة والمنطق اليوناني، وكذلك الأمر مع تأثر العلماء بالعلوم الهندية، فإن الأثر الفارسي كان واضحا في الحياة السياسية، والاجتماعية، والثقافية.

كان النفوذ في دولة الخلافة للفرس، وانتشرت ثقافتهم انتشارا كبيرا على يد الوزراء وكتّابهم الفارسيين، ونقل المثقفون من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية إلى العربية تراث الفرس القديم في الحضارة والثقافة، وانتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادرا عن عقليتين وثقافتين.[4]

توفرت في العصر العباسي الأول مجموعة من الظروف ساعدت كلها في أن تجد الثقافات الوافدة طريقها إلى فكر وحياة المجتمع العربي، فلقد كان رقي الذوق، وحياة التمدن، والتعطش للعلم، وكذا تشجيع الخلفاء على ترجمة ما يصل من نتاج الفكر الأجنبي، والرغبة في الاطلاع على علوم الحضارات المختلفة عوامل مهدت لتشكيل مناخ ثقافي جديد.

تجمعت هذه الثقافات في العراق في العصر العباسي الأول وأحدثت أثرها في العقول والأفكار، وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج هذه الثقافات، وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقدّموا معاني للأدباء لم يكونوا يعرفونها.وفي العصر العباسي الثاني (232هـ -334هـ) زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها بتطاول الزمن وتلاقح العقول وظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء.[5]

2-أثر الثقافة الأجنبية في الحياة الفكرية والأدبية العباسية:

انتشرت في العصر العباسي ثقافات مختلفة نتيجةً لاختلاف السكان؛ من حيث أصولهم وامتزاج بعضهم مع بعض في السكنى والتزاوج، وتطور الحضارة بشكل يستدعي علمًا بكثير من شؤون الحياة، فإلى جانب الثقافة العربية الإسلامية ظهرت الثقافة الفارسية، والثقافة اليونانية والثقافة الهندية، كما كان هناك ثقافات دينية كاليهودية والنصرانية.

أ--الثقافة الفارسية:

إنّ الأدب في كلّ عصر ظلُّ الحياة الاجتماعية وقد ظهر أثر الثقافة الفارسية في مختلف ميادين الحياة العباسية وفي النواحي الاجتماعية والأدبية على وجه الخصوص، وكان مظهرها واضحا جليّا فالناس يتّخذون من مناسبات الفرس واحتفالاتهم أيّامًا يحتفلون بها، وأصبح القضاة وعظماء الدولة يلبسون القلنسوة كالفرس، تسرّبت بعض الألفاظ الفارسية إلى اللغة العربية، وانتشرت مجالس الغناء واللّهو، والشراب وهي مجالس الفرس. فهم ميّالون إلى الإفراط في الشراب، والغناء، وظهر ذلك مترجما في شعر تلك المرحلة.[6]

وقد كان للفرس أثر كبير في الأدب العربي غير صفة اللهو والمجون، فكتبهم التي نُقلت من الفارسية إلى العربية (ككليلة ودمنة، وهزار إفسانة) أساسا من الأسس التي بُنيَت عليها الكثير من القصص العربية. "فقد عني المترجمون بترجمة العديد من الكتب الفارسية في التاريخ والأدب، فترجم عبد الله بن المقفع " كتاب خداينامه " وهو كتاب في تاريخ الفرس من أول نشأتهم إلى آخر أيامهم. كذلك ترجم ابن المقفع عن الفارسية "كليلة ودمنة" وكتاب " التاج في سيرة أنوشروان " وكتاب " الأدب الكبير " و " الأدب الصغير "، وكتاب " اليتيمة ".[7]

ولم يتوقف الأمر عند حدود الترجمة فقط، فسرعان ما ظهر نتاج أدبي مميّز أفرزته فئة من الأدباء بروح عربية فارسية فقد " كان كثير من الفرس الذين أتقنوا العربية، وتثقفوا الثقافتين الفارسية والعربية أنتجوا في الأدب العربي نتاجًا جديدا كالفضل بن سهل، وسهل بن هارون، وابن المقفع. كما نرى قوما من العرب تعلّموا الفارسية، ووجدوا فيها من الغذاء ما لم يجدوه في العربية، فعكفوا على كتبها يتدارسونها ويمعنون في دراستها ثم يُخرجون أدبا عربيا، فيه معاني الفرس، وبلاغة العرب مثل " العتابي " الشاعر العباسي الذي تثقف بالثقافة الفارسية".[8]

ب -الثقافة الهندية:

عرف العرب الحضارة الهندية منذ العصر الجاهلي، وتعاملوا مع الهنود من خلال التجارة، وكان العود من أشهر السلع الوافدة من الهند " كما أولعوا بالسّيوف الهندية، وسمّوا السيف المطبوع من حديد الهند المهنّد. ولمّا فتح المسلمون فارس والعراق فكّروا في الهند، فتتابع المسلمون يغزونها ويصيبون منها المغانم حتى وجه الحجاج محمد بن القاسم الثقفي إلى الهند ففتح جزءا منها، وهو المسمى بالسّند سنة 91 هـ.

وقد غنموا مغانم كثيرة، وسَبوا سبيا كثيرا. وأصبح الجيل السندي عنصرا من العناصر المكوّنة للأمة الإسلامية. وسرعان ما رأينا الموالي الذين جُلبوا من الهند، وغُنموا في الحرب نبغ منهم ومن أولادهم الشعراء وعلماء اللغة والمحدّثون. فمن الشعراء كان أبو عطاء السّندي. واشتهر من اللغويين ممّن أصله هندي ابن الأعرابي، ومن المحدثين أبو معشر نجيح السندي.[9]

أثّر الهنود في الثقافة الإسلامية من ناحيتين ناحية مباشرة باتصال المسلمين أنفسهم بالهند من طريق التجارة ومن طريق الفتح الإسلامي، وناحية غير مباشرة بنقل ثقافتهم بواسطة الفرس، فقد اتّصل الفرس بالهنود اتّصالا وثيقا قبل الفتح الإسلامي فلمّا نُقلت الثقافة الفارسية إلى العربية نُقل جزء من الثقافة الهندية في ثناياها.

لقد كان للهنود فلسفة، كما انتشرت لديهم ديانة البراهمة والبوذية. وقد أطال البيروني في وصف الفلسفة الدينية للهند، كما توقّف عند مسألة تناسخ الأرواح التي يعتقدون بها. وقد عرف المسلمون هذه الفلسفة وهذه المعتقدات وناقشوها. كما اتّصل المسلمون بالهند في الرياضيات وأخذوا عنهم قبل أن يتّصلوا باليونان وكذلك الشأن في الفلك.[10]

ولم يبتعد الأدب عن هذا التواصل الثقافي بل تأثر الأدب العربي ببعض التفاصيل الهندية " فعُرِّبت ألفاظ هندية، ودخلت آراء في الأدب والبلاغة نُقِلت إلينا عنهم. كما نُقِلت العديد من القصص الهندية، وقد أولع العرب بها من ذلك قصة السندباد. كما أن في كتاب ألف ليلة وليلة قصصا دلّ البحث العلمي أن أصلها هندي.

كما نُقلت إلى العربية الكثير من الحِكم الهندية التي تتّفق والذوق العربي. وقد كانت هذه القصص والحِكم عنصرا هامّا من عناصر الأدب العربي.[11]

ج-الثقافة اليونانية:

تمت الإشارة في موضع سابق إلى أنّ أثر الثقافة اليونانية لامس الجانب الفكري، خاصة وأنّ العرب في ذلك الوقت عرفوا عصر تدوين العلوم العربية، فتسرّبت الثقافة اليونانية إليها وصبغتها صبغة خاصة، كان لها تأثير كبير في الشكل والموضوع.

فأما الشكل فيرجع إلى تأثير المنطق اليوناني فقد صبغ العلوم العربية صبغة جديدة صبّت في قالبه، فقد تتابع المترجمون يترجمون الكتب المنطقية. وقد كان للمنطق سلطان كبير على العقول في العصر العباسي فقد اصطبغت طريقة الجدل، والبحث والتعبير، بأساليب المنطق، وأصبحت الكتب ترتّب وتقسّم ترتيبا، وتبويبا منطقيا.

وأما في الموضوع فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير في الفلسفة العربية الإسلامية.[12]

كما انتقلت بعض آثار الثقافة اليونانية إلى النواحي الاجتماعية في المجتمع العربي نتيجة امتزاج الجنسين العربي واليوناني الروماني فقد كان هؤلاء الرومان يعيشون بين العرب، ولهم عادات وتقاليد وأفكار وآراء في نظام الحكم، ولهم فنون من غناء وتصوير وما إلى ذلك، فكان العرب يقتبسون ما تيسّر لهم، كما تأثر الأدب العربي بالثقافة اليونانية فنجد ألفاظا يونانية عُرّبت، وقصص يونانية نُقلت إلى العربية إلى جانب كتب في التاريخ وفي مجالات مختلفة. كما تُرجمت حِكم نُسِبَت إلى فيثاغورس وسقراط، وأفلاطون وأرسطو. إلى جانب كتب الفلسفة والمنطق. ولكنّ تأثير اليونان كان عميقا في الفلسفة والعلوم الرياضية والطبية، ضيّقا خفيفا في الناحية الأدبية.[13]

ثانيا: أثر الثقافة الأجنبية في النقد الأدبي:

تلوّن الأدب عموما، والشعر على وجه الخصوص بملامح فنية تتناسب ومتغيرات الحياة في العصر العباسي، وبعد أن كانت صفة الفطرة والسليقة هي ما يميّز الشعر في العصور السابقة، تحوّل إلى صناعة وفنّ يواكب تطوّر الذوق في هذا العصر، وكذلك الأمر بالنسبة للنقد الأدبي الذي استفاد من قواعد، وأصول نقلته من الآراء المرتجلة، السطحية أحيانا، إلى نقد مبني على توجّه علمي مؤسّس له مرجعياته التي يستند إليها.

ولقد كان لانفتاح الثقافة العربية على غيرها من الثقافات دوره في هذا الشأن فقد بدأت الثقافات الأصلية والوافدة تتفاعل في العقول، وتُحدِث تحولا كبيرا في الذوق العباسي، وقد شمل هذا التحول الشعر فبدأ يتّجه إلى الثراء والوحدة وأخذ الشاعر يحدد لنفسه إطارا فنيا ينظم فيه، وبرزت اتجاهات فنية استقطبت بعض الشعراء فتحمّسوا لها وأقبلوا عليها كمذهب البديع أو شعراء الصنعة، وكمذهب المطبوعين. كما شملت الناقد الذي بدأ يلاحظ الظواهر والقضايا ويبحثها بموضوعية ويبدي آراءه فيها على أساس من اتجاهاته، وميوله ومعتقداته الفكرية، ويحلّل ويعلّل ليصل إلى أحكام واستنتاجات مفيدة.[14]

حاول الناقد العربي الاطلاع على نتاج الفكر، والنشاط الأدبي اليوناني، والفارسي من خلال الكتب المترجمة، والاستعانة بما يتناسب والذوق العربي. وقد أثّرت هذه الثقافات في النقد تأثيرا كبيرا وكانت من أقوى عوامل ازدهاره؛ لأنها وجهته لمعايشة قضايا عصره، وجعلته يبعد عن الآراء العاجلة وانتحى ناحية منهجية

وموضوعية. وكانت هذه الثقافة بما أودعته العقل من ثراء بداية مرحلة نقدية جديدة من اليقظة والوعي والتجديد، فلم يعد الناقد يتوقف عند الآراء المتفرقة أو المبعثرة بل راح يُسَجِّلُ أفكاره وانطباعاته في إطار فلسفي يلتزمه في وعي وتحديد.[15]

وما تجب الإشارة إليه هو الدور الذي قامت به حركة الترجمة، والتي كانت سببا في انفتاح المناخ العربي الفكري على الساحة الثقافية المحيطة به، وحتى البعيدة عنه.

وقد عمل نشاط حركة النقل و الترجمة في العصر العباسي على إثراء الأدب و النقد بما تُرجِم من فلسفة اليونان و منطقهم، فقد صبغت عقلية الأدباء، والنقاد بآثارها العميقة في التفكير، والمعاني وطرافة التقسيم، والخيال، كما أثرى كذلك بالمتَرجم إلى العربية من قصص الهند و أدب الفرس، فكانت الترجمة عاملا قويّا من العوامل التي دفعت النقد العباسي إلى الأمام، ذلك أنه قد انتقلت بترجمتها مظاهر أدبية، ونقدية كان لها أثرها في الحركة العقلية للنقد، فوُضعت النظريات، وتدخل المنطق في الجدل و الحوار، و أُلّفت الكتب النقدية التي تزخر بالمناهج العلمية و العقلية التي أسّسها النقاد العرب.[16]

وقد تُرجم تأثر العلماء العرب بالفلسفة اليونانية في كتبهم التي تلوّنت بصبغة علمية منطقية، وظهر ذلك بوضوح في القرن الرابع بوضوح عند " قدامة بن جعفر" في كتاب "نقد الشعر"، كما ظهر عند " الرماني" في كتابه " النكت في إعجاز القرآن"، وظهر ذلك عند نقاد القرن الخامس كالباقلاني في كتابه " إعجاز القرآن" وابن سنان الخفاجي في كتابه" سر الفصاحة".

واستطاع علماء المسلمين عن طريق هذه الفلسفة بصفة خاصة، والاطلاع على كتابي "الخطابة" و " فن الشعر" لأرسطو أن يخرجوا بالنقد من الجوّ العربي الخالص إلى جو آخر فيه كثير من العلل، والقياسات العقلية والمنطقية اليونانية السِّمات.[17]

1-أثر الفلسفة اليونانية في نقد المتكلمين:

ظهر الأثر اليوناني واضحا في تطور النقد العربي، ذلك أنّ المعالجة العلمية والمنطقية التي كان يعتمدها اليونان في نقدهم لأدبهم وشعرهم بالتحديد قد انتقلت ملامحها إلى الساحة العربية. " وأوّل ما ظهر كان عند المتكلّمين الذين رأوا حاجتهم الملحّة للفلسفة حتّى يدفعوا المطاعن عن القرآن وكانت دراسة الفلسفة والمنطق وسيلة لتمكين المعتزلة والمتكلّمين عامة من الحجاج العقلي."[18]

ومن الجدير بالذكر أن المتكلمين كانوا من أبرز العوامل التي ساعدت على تواصل الثقافة العربية مع غيرها من الثقافات ذلك أنهم كانوا بحاجة إلى " أن يطّلعوا على الأديان الأخرى من مجوسية ويهودية ونصرانية، وكانت اليهودية والنصرانية قد تسلّحت بالفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني، فاضطر المتكلمون أن يتسلّحوا بنفس سلاحهم، فكانوا أول من أدخل الفلسفة اليونانية في الإسلام، وكان المتكلّمون حلقة الاتصال بين من أتى بعدهم من فلاسفة المسلمين كالفارابي، وابن سينا، وابن رشد".[19]

وتميّز المتكلمون بالبحث، والتنقيب عن مسائل الفلسفة، والفكر، والأدب في الثقافات الوافدة، وكانوا كثيرا ما يسألون عن مفاهيم لمصطلحات تخص البيان والبلاغة، من ذلك ما أورده الجاحظ في البيان والتبيين: " قيل للفارسي ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، وقيل لليوناني ما البلاغة؟ قال: تصحيح

الأقسام واختيار الكلام، وقيل للرومي ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة، وقيل للهندي ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة.[20]

وعلى هذا النحو كانت تختلط آراء المتكلمين في النقد والبلاغة بآراء الأجانب، وكانوا يتأثرون بهم فيما يضعون من قواعد وأصول. فنجد فكرة " مطابقة الكلام لمقتضى الحال" التي صورها أفلاطون في بعض محاوراته، وفصّل فيها أرسطو في كتابه " الخطابة" تصل إلى المتكلمين. وأكثَر الجاحظ في بيانه من الحديث عن هذه الفكرة. فمن حين إلى حين يشير إلى أن الكلام طبقات تختلف باختلاف السامعين وطبقاتهم. ويَرِد ذلك أيضا في كتاب " الحيوان" فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة مقامًا.

ويرى شوقي ضيف أن المتكلمين لم يستعيروا فقط هذه الفكرة اليونانية من الأجانب، بل لابدَّ أنّهم استعاروا نظريات أخرى متفرقة.[21]

2-الأثر اليوناني في كتاب " نقد الشعر" لقدامة بن جعفر:

تحوّل الشعر والأدب في العصر العباسي إلى فن وصناعة، بعد أن كانا يصدران عن الطبع والسليقة، واتّسعت الثقافة لتشمل فروع المعرفة كلها، فلم تعد تقتصر على الثقافة الأدبية، وتدفّقت الثقافات الأجنبية على المملكة الإسلامية، من فارسية، وهندية ويونانية. وأصبحت كل مجموعة من المعارف تتحول إلى علم حتى اللغة، والأدب والنحو، والصرف. وسار النقد الأدبي على نمطين:

-نمط منه هو امتداد النقد الجاهلي والإسلامي مع ما اقتضته البيئة من تحول (أبو عمرو بن العلاء، الأصمعي، ابن الأعرابي...).

--نمط آخر وهو النمط العلمي في النقد، نمط تأليف، ووضع كتب لا تتعرض إلا للنقد وما يتصل به.

ومازال هذا شأن النقد العربي حتى تُرجِم كتاب الخطابة لأرسطوطاليس في النصف الثاني من القرن الثالث، وتُرجِم بعده كتاب الشعر، وبذلك ظهرت مادة جديدة في النقد لم تكن معروفة، مادة فلسفية يونانية لا عهد للعرب بها، وهي مادة لم تكن تعرفها معرفة تامة عامة المثقفين، وإنما يعرفها المتفلسفة، فكان من الضروري أن يظهر من بينهم من يحاول تطبيقها على الشعر، والنثر العربيين، ولم نلبث أن وجدنا " قدامة بن جعفر"، يقوم بهذه المحاولة في دائرة الشعر، من خلال كتابه " نقد الشعر".[22]

سعى قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر" إلى ضبط مفهوم الشعر، وتحديد عناصره الأربعة: اللفظ والمعنى، والوزن والقافية، وشرح الوجوه التي يتم بها الائتلاف بين تلك العناصر ليتم للشعر جماله وجودته، كما عالج العيوب التي تقعد به عن بلوغ درجة الجودة، والبراعة.

رأى بدوي طبانة في كتابه الموسوم بـ: " قدامة بن جعفر والنقد الأدبي" أن قدامة بن جعفر قد وضع من خلال " نقد الشعر" أسس النقد الموضوعي في تاريخ النقد العربي، وهو الذي أشار إلى المنافذ التي يستطيع الناقد المنصف أن يطل منها على ما يريد من الأعمال الأدبية، ويضع حدّا للإسراف في الإدلاء بالأحكام التي تنبعث عن الذاتية والهوى، ويحاول أن يجعل من النقد صناعة واضحة المعالم، بيّنة الحدود.[23]

وذهب بدوي طبانة إلى أن القواعد والأصول التي تضمنها " نقد الشعر" أفادها قدامة من تقاليد الشعر العربي وآراء النقاد العرب، وبعضها استنبطها بفكره وذوقه الخاص، بينما هناك بعض القواعد التي استفادها من مصادر غير عربية،وكان المنطق والفلسفة اليونانية أبرز هذه المصادر الأجنبية. ففي "نقد الشعر" نصوص

تدل على وثيق صلة لقدامة بالفكر اليوناني ومعرفته بثمرات هذا الفكر، مثل كلامه في الحدِّ والنوع، والجنس، والذات والعرض، وكلّها مصطلحات منطقية.[24]

كما ظهر أثر الفلسفة اليونانية كذلك في المواضع الآتية:

1-أثر الفلسفة والمنطق في تصور قدامة للشعر: فقد كان للمنطق أثر في طريقة تأليف الكتاب وتقسيمه، وتبويبه. ورأى قدامة أن يحصر، ويحدّد المعاني الشعرية في أغراض ستة (المديح، والهجاء، والرثاء، والوصف، والنسيب، والتشبيه) وحصر المعاني بهذه الطريقة يوحي بأثر يوناني.

2-الكلام في "الغلوّ": فإلى جانب الذوق العربي، وآراء بعض النقاد الذين يستشهد قدامة بقولهم: أحسن الشعر أكذبه، فإنّنا نلمس الأثر اليوناني في قوله: "وكذلك يرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم" وإن كان لم يُصرّح بصاحب هذا الرأي من فلاسفة اليونان وهو "أرسطو" الذي يقول في كتاب "فن الشعر": " إن المستحيل المقنع في الشعر أفضل من الممكن الذي لا يقنع" .[25]

ومن الواضح أن قدامة يشارك أرسطو صراحة في ثلاث من تلك الفضائل وهي: العدل والشجاعة، العفة، وشاركه في الرابعة بالمعنى، فإن مفهوم العقل قريب من مفهوم الحكمة. أما الفضائل التي زادت عند أرسطو فقد جعلها قدامة فروعا للفضائل الأربع الأصول التي ذكرها: فجعل ثقابة المعرفة (وهي صدق الحدس عند أرسطو) والحلم (وهو ما عبّر عنه أرسطو بالتّسامح) قسمين من أقسام العقل، ومن أقسام العدل والسماحة، وإجابة السائل والتبرع وما جانس ذلك (وهذا يقابل السخاء في فضائل أرسطو).[26]

3-يعدّ قدامة الحماية، والأخذ بالثأر، والنكاية في العدوّ، وقتل الأقران من أقسام الشجاعة، ومن فضائل النفس التي يمدح بها، وكذلك يرى أرسطو أن عقاب الأعداء أجمل من التساهل معهم لأن مقابلة المِثل بالمِثل عدالة.[27]

ورأى بدوي طبانة أن آثار الثقافة اليونانية في كتاب " نقد الشعر" لم تقف عند آراء أرسطو، بل ضمت إليها من أفكار غيره " كجالينوس" الذي ذكره قدامة في حديثه عن بيتين من الهجاء.[28]

3-أثر الفلسفة اليونانية في نقد الفلاسفة المسلمين:

توالت المؤلفات النقدية التي أنتجها النقاد الفلاسفة وتعدّدت القضايا النقدية التي عالجوها في الشعر، والنثر، وقد برزت علاقة الفلسفة والنقد في مؤلفاتهم. فالفلسفة هي علم القوانين العامة للوجود والتفكير الإنساني وعملية المعرفة، ومن صفاتها الشمول، والوحدة، والتعمّق في التفسير والتعليل، والبحث عن الأسباب القصوى والمبادئ الأولى. أما النقد الأدبي فإنّه فن دراسة الأساليب وتمييزها، وهو منحى من مناحي التفكير الإنساني، متجه نحو الأدب، ابتغاء معرفته والكشف عن خصائصه.

ولما كانت الفلسفة علم قوانين الوجود العامة، والفكر الإنساني، فإنها تشكّل النقد، وتوجّهه، وقد وُلد النقد عند الفلاسفة، وارتبط بالفلسفة عند اليونان حتى صار فرعا من فروعها.[29]وظهر أثر الفلسفة اليونانية، وتصورهم لطبيعة الشعر، وعناصره، وخصائصه في معالجة الفلاسفة المسلمين لهذا الموضوع، وسنمثل لهدا الأثر عند بعض الفلاسفة:

-الفارابي (ت 339هـ):

جاء في كتاب طبقات الأطباء أن للفارابي كتابا في الخطابة كبيرا في عشرين مجلدا، وكتابا في صناعة الكلام، وكلاما في الشعر والقوافي، غير أنه لم يصلنا شيء من هذا، والذي وصلنا منه رسالة في قوانين صناعة الشعراء وكتاب الشعر، الذي نشره محمد سليم سالم بعنوان جامع الشعر، وما جاء في إحصاء العلوم بشأن الشعر.[30] ومن بين القضايا التي تحدّث فيها الفارابي:

أ-مفهوم الشعر: يبرز الأثر اليوناني في تعريف الفارابي للشعر بأن قوامه و" جوهره عند القدماء هو أن يكون قولا مؤلفا مما يحاكي الأمر وأن يكون مقسوما بأجزاء ينطق بها في أزمنة متساوية، ثم سائر ما فيه فليس ضروري في قوام جوهره وإنما هي أشياء يصير بها أفضل".[31]

غير أن الفارابي في بيئة لا ترى غير الموزون شعرًا، فكان لابد أن يعنى بالأوزان، فنراه في "إحصاء العلوم" يقول بأن " علم الأشعار على الجهة التي تشاكل علم اللسان ثلاثة أجزاء: إحصاء الأوزان المستعملة في أشعارهم، بسيطة كانت الأوزان أو مركبة، ثم إحصاء تركيبات الحروف المعجمة التي تحصل عن صنف منها و وزن من أوزانهم وهي التي تعرف عند العرب بالأسباب و الأوتاد، وعند اليونانيين بالمقاطع و الأرجل، ثم الفحص عن مقادير الأبيات و المصابيح ومن كم حرف ومقطع يتم بيت في وزن ، ثم يميز الأوزان الوافية من الناقصة و أي الأوزان أبهى و أحسن و ألذّ مسموعا.[32]

ب -المحاكاة: والمحاكاة هي التخييل، وهي جوهر الشعر، فليس جديرا أن يسمى شعراً ما يخلو منها، وإن كان موزونا. الأقاويل الشعرية هي التي شأنها أن تؤلف من أشياء محاكية للأمر الذي فيه القول، فإن محاكاة الأمور قد تكون بفعل، كأن يحاكي الانسان بيده شيئا ما مثل أن يعمل تمثالا يحاكي به إنسانا بعينه. وقد تكون بقول كأن يؤلف قولا يضعه أو يخاطب به من أمور تحاكي الشيء الذي فيه القول.[33]

ولأن الشعر يعتمد على المحاكاة فإن المحاكاة والأشياء التي تتمّ بها تعدّ أهمّ عنصر في الشعر.

ج - بين الشعر والرسم: " عقد الفارابي صلة بين الشعر والرسم عندما قال: إن بين أهل هذه الصناعة وبين صناعة التزويق مناسبة وكأنهما مختلفان في مادة الصناعة ومتفقان في صورتها وفي أفعالها وأغراضها... وذلك أن موضع هذه الصناعة الأقاويل، وموضع تلك الصناعة الأصباغ ".[34] الشعر (القول الشعري) يقوم على المحاكاة، وهو في ذلك يشبه الرسم (صناعة التزويق) وليس من اختلاف بينهما إلا في مادة الصناعة، ولكنهما متفقان في صورتها، وأفعالها و أغراضها، وذلك أن موضع هذه الصناعة الأقاويل، وموضع تلك الصناعة الأصباغ... إلا أن فعلهما جميعا التشبيه (التمثيل) و غرضهما إيقاع المحكيات في أوهام الناس و حواسهم.[35]

وفكرة المحاكاة، وكذا فكرة المقارنة بين الشعر والرسم هي فكر طرحها أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان في معالجتهم لطبيعة الشعر.

-ابن سينا (ت 428 هـ):

قام ابن سينا بتلخيص كتاب الشعر، وبدأ بمقدمة ليست من أصل الكتاب يبرز فيها بعض مواقفه النقدية، والتي منها:

أ -تعريف الشعر: يعرف ابن سينا الشعر في مقدمة تلخيصه كتاب الشعر بأنه: " كلام مُخيّلٌ مؤلف من أقوال موزونة متساوية، وعند العرب مقفاة" ثم يشرح هذا التعريف ويدلّ على أن المنطقي لا يهمّه منه إلاّ الحديث عن التخييل.

فالكلام المخَيَّل هو الكلام الذي تُذعن له النفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور من غير روية، وفكر واختيار، وبالجملة تنفعل له انفعالا نفسانيّا غير فكري سواء كان المقول مصدّقا به أو غير مصدّق.[36]

ب -**الفرق بين الشعر اليوناني والشعر العربي:** رأى ابن سينا أن الشعر اليوناني يحاكي الأفعال والأحوال، والشعر العربي يحاكي الذوات. فأنتج اليوناني شعرا موضوعيا (الملحمي والمسرحي)، وأنتج العربي شعرا ذاتيا غنائيا. أما الذي دفع الانسان لقول الشعر فيراه ابن سينا في أمرين:

- استمتاع الانسان بالمحاكاة وقدرته عليها.
- حب الناس للتأليف المتقن والألحان.

ج -**المحاكاة والتخيل**: قرن ابن سينا المحاكاة بالتخيل، وفهمها على أنها صورة الوجود الخارجي كما تراه المخيلة، وهنا يفيد ابن سينا من بحوث أرسطوطاليس في النفس وقواها، فالمخيلة هي التي تحتفظ بالإحساس الآتي من الخارج، وهي وإن كانت لا تستطيع أن تعيد الإحساس كما هو من غير نقصان، فإنها تستطيع الاختراع والتأليف.[37]

-ابن رشد (ت 595):

لم تعرف الأندلس قبل ابن رشد كتاب الشعر لأرسطو سوى لمحات يسيرة، فرأى ابن رشد أن الكتاب لا يمكن أن يكون مفيدا للقارئ العربي إذا هو لم يطبّق ما يمكن تطبيقه من آراء أرسطو على الشعر العربي. فتناول ابن رشد الكتاب ابتغاء تلخيص ما فيه من القوانين الكلية، المشتركة لجميع الأمم. غير أنه لم يقف عند التلخيص، وتأدية أفكار أرسطو كما فهمها، وإنما تعدى إلى تطبيق ما فهم من تلك الأفكار على الشعر العربي.

جعل ابن رشد الشعر قسمين مديح وهجاء وهي القسمة العقلية التي وجدناها عند قدامة بن جعفر من قبل. من منطلق فهمه للتراجيديا والكوميديا على أنهما المديح والهجاء، وقول أرسطوطاليس أن الشاعر في التراجيديا يصوّر الناس خيرا مما هم عليه، ويقوم بالعكس في الكوميديا. والتخيل عند ابن رشد شرط في الشعر، وهو المحاكاة، وقوامه النغم المتفقة، والوزن، والتشبيه.

ولما كان الشعر عند ابن رشد إما مدحا أو هجاء، فإن ما يحاكى إما فضائل وإما رذائل. فمن جُبِل على الخير والفضيلة حاكاها، ومن نازعته نفسه إلى الشر حاكاها.[38]

وحدّد ابن رشد التخييل والمحاكاة في الأقاويل الشعرية من خلال ثلاثة أشياء: النغم، والوزن، والتشبيه. وقد توجد هذه الأصناف مفردة، كالنغم في المزامير، والوزن في الرقص، والمحاكاة في اللفظ. وقد تجتمع كلها مثل ما هي عليه الموشحات والأزجال. ولا يغفل ابن رشد الإشارة إلى طبيعة الشعر العربي الذي يختلف عن الشعر اليوناني في كونه يتضمن الوزن فقط، أو الوزن والمحاكاة معا، ولكن لا يوجد فيه لحن.[39]

كما توقف ابن رشد عند بناء القصيدة، وحاول تكييف تقسيم أرسطو لقصائد اليونان مع قصائد المدح العربية، وبيّن أنّ ما يوجد من أقسام القصيدة في أشعار العرب ثلاثة أقسام:

" الجزء الذي يجري عندهم مجرى الصدر في الخطبة، وهو الذي يذكرون الديار والآثار ويتغزلون فيه. والجزء الثاني: المدح، والجزء الثالث: الذي يجري مجرى الخاتمة في الخطبة.[40]وهي فيمجملها أفكار عالجها أرسطو وغيره من فلاسفةاليونان.

خاتمة:

قدّم البحث دراسة للمشهد النقدي في العصر العباسي، بالتركيز على أثر الثقافة الأجنبية في رسم ملامح هذا النقد، فقد تأثر بجملة الظروف التي صبغت الحياة العربية في النواحي الثقافية، والفكرية، والاجتماعية، وحتى الدينية. كما كان لحركة المدّ الفكري -الذي شهدته الدولة العباسية من خلال ترجمة النتاج الأدبي، والنقدي للأمم المجاورة لها-دورها في انتقال النقد من شكل الآراء المرتجلة، والذاتية إلى نقد موضوعي ممنهج، له قواعد وأصول تحكمه.

ويمكن تلخيص أهم ما توصّل إليه البحث من نتائج في هذا الموضوع على النحو الآتي:

-توجيه الثقافة الأجنبية للنقد العربي إلى معايشة القضايا المعاصرة في ساحة الأدب، والنقد.

-يعدّ اعتماد المنهج العقلي في النقد الأدبي من ثمار تأثر النقاد العرب بالفلسفة اليونانية، ذلك لأنهم لامسوا قيمة التفكير المنطقي المبني على الوعي، والملاحظة، والاستنباط في معالجة النصوص الأدبية بشكل موضوعي.

-ابتعاد النقد الأدبي عن الآراء العاجلة، والذاتية ومحاكاة النقد اليوناني في مراحله، ومنهجه.

-بالرغم من تأثر ساحة النقد العربي بنتاج الثقافة الأجنبية في ميدان الأدب والنقد؛ إلاّ أن النقاد العرب سعوا إلى المحافظة على خصوصية الأدب العربي، وسمات البيئة العربية التي لا تتوافق مع بعض ما جاء في المؤلفات الأجنبية.

هوامش وإحالات المقال

[1]- شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط8، دت، ص 89.

[2]- المرجع نفسه، ص 94.

[3]-المرجع السابق، ص 95.

[4]- محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2004، ص 21.

[5]-المرجع نفسه، ص 27، 28.

[6]- أحمد أمين : ضحى الإسلام، ج1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دط، دت، ص 175 وما بعدها.

[7]- المرجع نفسه، ص 172.

[8]-أحمد أمين: ضحى الإسلام، ص174.

[9]- ينظر: المرجع نفسه، ص 213 وما بعدها.

[10]- أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ص219.

[11]- المرجع نفسه، ص 219 وما بعدها.

[12]- أحمد أمين : ضحى الإسلام ،ص 252 وما بعدها.

[13]- المرجع نفسه، ص255 وما بعدها.

[14]- مصطفى عبد الرحمان إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، مصر، دط، 1998، ص129.

[15]- المرجع نفسه، ص 130

[16]- المرجع نفسه، ص 135.

[17]- مصطفى عبد الرحمان إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص135، 136.

[18]-المرجع نفسه، ص 136.

[19]- أحمد أمين: ضحى الإسلام، ص 340.

[20]- عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، دط، 2001، ص 63.

[21]- شوقي ضيف: النقد، دار المعارف، القاهرة، ط5، دت، ص 58 وما بعدها.

[22]- المرجع نفسه، ص63.

[23]- بدوي طبانة: قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1969، ص 4.

[24]-المرجع نفسه، ص 148 وما بعدها.

[25]- دوي طبانة: قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، ص 151.

[26]-المرجع نفسه، ص 152.

[27]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[28]- المرجع نفسه، ص 154.

[29]- سعيد عدنان: الاتّجاهات الفلسفية في النقد الأدبي، دار الرائد العربي، لبنان، ط1، 1987، ص 15.

[30]- المرجع نفسه، ص100.

[31]- المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

[32]- سعيد عدنان: الاتّجاهات الفلسفية في النقد الأدبي، ص101.

[33]- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، الأردن، ط1، 2001، ص206.

[34]- سعيد عدنان: الاتّجاهات الفلسفية في النقد الأدبي، ص109.

[35]-المرجع نفسه، ص109.

[36]- ينظر: المرجع نفسه، ص 115 وما بعدها

[37]- سعيد عدنان: الاتّجاهات الفلسفية في النقد الأدبي، ص 115 وما بعدها.

[38]-المرجع نفسه، ص123 وما بعدها.

[39]-ابن رشد: تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر، تحقيق: محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، دط، 1971، ص 60

[40]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

قائمة المصادروالمراجع:

1-إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، الأردن، ط1، 2001،

2-أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دط، دت.

3-بدوي طبانة: قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1969.

4-ابن رشد: تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر، تحقيق: محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، دط، 1971

5-سعيد عدنان: الاتّجاهات الفلسفية في النقد الأدبي، دار الرائد العربي، لبنان، ط1، 1987.

6-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط8، دت.

7-شوقي ضيف: النقد، دار المعارف، القاهرة، ط5، دت.

8-عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، دط، 2001.

9-محمد عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2004.

10-مصطفى عبد الرحمان إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، مصر، دط، 1998.